تفسير سورة ق

دراسة تحليلية

إعـــداد
دكتور/حماد وهبة على جرابات
مدرس التفسير وعلوم القرآن الكريم
فى كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا

تمهيد بين يدى السورة

من المتفق عليه أن من يريد أن يفسر الســورة القرآنيــة تفســير تحليليــا فيتحدث أولا عن المباحث الآتية : -

أ- أغراض السورة المراد تفسيرها .

ب- فضائلها .

جـ- مكيتها أو مدنيتها .

ونبدأ بعون الله تعالى – فى تفسير سورة (ق) ونتكلم على تلــك المبــاحث فنقول وبالله التوفيق .

مكية السورة :

قال ابن عطية : أجمع المتأولون على أن سورة (ق) مكية [١] .

---

[١] المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (١٥ / ١٥٨) ط : والإتقان فى علوم القرآن جـــــ١ صـــ٢٧ للإمام السيوطى .

وقال القرطبى : مكية واستثنى منها آيـــة : " ولقــد خلقنـــا الســماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب "

أنها نزلت فى اليهود يعنى فى الرد عليهم إذ قالوا : إن الله خلق الســماوات والأرض فى ستة أيام ثم استراح فى اليوم السابع وهو يوم السبت[١] .

قال صاحب التحرير والتنوير :

وهذا المعنى وإن كان دقيقاً فى الآية فليس بالذى يقتضى أن يكـــون نــزول الآية فى المدينة فإن الله علم ذلك فأوحى به إلى رسوله – صلى الله عليه وسلم .[٢]

عدد آياتها :

قال الإمام الألوسى : آيها خمس وأربعون بالإجماع [٣] .

أغراض سورة (ق) :

١- التنويه بشأن القرآن الكريم .

٢- أنهم كذبوا الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأنه من البشر .

٣- الاستدلال على إثبات البعث وأنه ليس بأعظم من ابتداء خلق السماوات وما فيها وخلق الأرض وما عليها ، ونشأة النبات والثمار من ماء السماء وأن ذلك مثـــل للأحياء بعد الموت .

---

[١] تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١) ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م

[٢] التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٢٦ / ٢٧٤) ط : الدار التونسية للنشر بدون تاريخ .

[٣] تفسير روح المعانى للألوسى (٢٦ / ١٧) ط : دار الفكر

٤- تنظير المشتركين فى تكذيبهم بالرسالة والبعث ببعض الأمم الخالية المعلومة لديهم ، ووعيد هؤلاء أن يحل بهم ما حل بأولئك .

٥- وعد المؤمنين بنعيم الآخرة .

٦- تسلية النبى - صلى الله عليه وسلم - على تكذيبهم إياه وأمره بالإقبال على طاعة ربه وإرجاء أمر المكذبين إلى يوم القيامة .

٧- الثناء على المؤمنين بالبعث بأنهم الذين يتذكرون بالقرآن .

٨- إحاطة علم الله تعالى - بخفيات الأشياء وخواطر النفوس .

٩- الوعيد بعذاب الآخرة ابتداء من وقت احتضار الواحد وذكر هول يوم القيامة .[١]

علاقة السورة بما قبلها :

قال الإمام الألوسى : " ولما أشار - سبحانه وتعالى - فى آخر السورة السابقة إلى أن أيمان أولئك الأعراب لم يكن إيمانا حقا ويتضمن ذلك إنكار النبوة وإنكار البعث افتتح - عز وجل - هذه السورة بما يتعلق بذلك .[٢]

الآثار الواردة فى فضل السورة الكريمة :

ورد فى فضل سورة (ق) أحاديث كثيرة منها :-

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن قطبة بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم - قرأ فى صلاة الصبح سورة (ق) والقرآن المجيد .[٣]

---

[١] التحرير والتنوير (٢٦ / ٢٧٥)

[٢] الألوسى (١٧٠/٢٦) ، نظم الدر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى صـ ١٨ صـ ٣٩٨ ط : دار الكتاب الإسلامى بالقاهرة

[٣] أخرجه الإمام مسلم فى كتاب الجمعة باب ما يقرأ فى يوم الجمعة ٥٩٩/٢ ، ط. دار الحديث .

وهذا يدل على أنها فضلا عظيما ، ومن ذلك أيضا ما رواه الإمام مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان " ما أخذت ق والقرآن المجيد " إلا على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم – يقرؤها كل يوم على المنبر إذ خطب الناس [١] .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ... أما بعد ،،

فقد عنى المسلمون بالقرآن الكريم منذ نزله الله تعالى عليهم ، وكان تفسير القرآن الكريم ، أو بعض سوره واحدا من أعمالهم الكثيرة فى خدمة كتاب الله تعالى ، وتيسير فهمه .

ونقدم فى هذه الصفحات تفسير سورة (ق) دراسة تحليلية .

تفسير سورة (ق)

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين .

قوله عز وجل : (ق) اختلف فيه ، فقيل : هو جبل محيط بالأرض من جوهر أزرق ، وإن شعاعه يقع على السماء فمنه زرقتها . وقيل : الإشارة به إلى قدرة الله عز وجل ، لأنه حرف منها ، كما قال بن عباس فى (كهيعص) إن الكاف

---

[١] أخرجه الإمام مسلم فى كتاب الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة ٢/٥٩٥ .

من كاف ، والهاء من هاء ، والياء من عليم ، والعين من عزيز ، والصاد من صادق [١] ويحتمل أن يكون (ق) أمرا ، ثم فيه وجهان :

أحدهما : من الوقوف ، كقول الراجز :

قلنا لها قفى لنا قالت قاف [٢]

أى وقفت . وكما استعمل (ق) فى وقفت ، فكذا يستعمل فى قف . فيكون المعنى قف للكفار فسترى عاقبتهم .

الثانى : أنه أمر من المقافاة ، كما قيل فى (ص) بكسر الدال : إنه من المصاداة [٣] ، فيكون المعنى قاف الكفار : أى أعرض عنهم وولهم قفاك ، نحو أعرض عنهم فسيكفيكهم ، ويكون على هذا من آيات الإعراض المنسوخة ، أو المحكمة بمعنى التهديد [٤] قوله عز وجل (والقرآن المجيد) قسم بالقرآن ، (والمجيد) قد سبق أنه (فعيل) من المجد : وهو الشرف .[٥]

قوله عز وجل : (بل عجبوا) الآية . (بل) حرف معناه الاضراب فيقتضى مضربا عنه ، وليس مذكورا ، فهو محذوف دل عليه سياق الكلام . فالتقدير :

---

[١] الطبرى ٣٣/١٦ ، والقرطبى ٧٤/١١ ، والدر المنثور ٢٥٨/٤ .

[٢] ينسب البيت للوليد بن عقبة . ينظر الفراء ٧٥/٣ ، والخصائص ٣٠/١ ، والطبرى ٧٠/١ ، ٩٣/٢٦ ، والقرطبى ١٥٥/١ ، ٢/١٧ ، وشرح شواهد الشافية ٢٧١ .

[٣] هذا فى قراءة (قاف) بكسر الفاء ، وهى الحسن وغيره ، كقراءة الحسن (صاد) بكسر الدال ، القرطبى ١٤٢/١٥ ، ١/١٧ ، والبحر ٣٨٣/٧ ، ١٢٠/٨ ، والإتحاف ٣٧١ ، ٣٩٨

[٤] ينظر معنى (ق) فى الطبرى ٢٣/١٦ ، والقرطبى ٧٤/١١ ،

[٥] وردت كلمة (مجيد) فى سورة هود ٧٣ ، والبروج ٢١،١٥ .

والقرآن المجيد ليس بخاف عنهم أمرك ، (بل عجبوا) أو : والقرآن المجيد لست بكاذب كما يزعمون .

(بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) اختص عليهم بالرسالة ، وليس ذلك محل عجب ، وإنما هى شبهة وقعت لهم ، ويحتمل أن يكوم جواب القسم : (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب) [١] على ما ذكر نظيره بعض المفسرين ، لكنه بعيد جدا (أن جاءهم) أى : عجبوا من أن جاءهم أى من مجيئ منذر منه ، لأن (أن) وما بعدها فى تقدير المصدر ، وعجبت لا تتعدى بنفسها بل بمن ، تقول : عجبت من كذا ، ولا تقول عجبت كذا ، ويحتمل تضمين عجبوا معنى استعظموا فيتعدى بنفسه ، أى استعظموا أو استغربوا مجئ منذر منهم . وفائدة قوله عز وجل : (منهم) التنبيه على المثل المشهور (مغنية الحى لا تطرب) ، وقولهم : (ما وقرك كبيرا من عرفك صغيرا) [٢] وفيه إشارة إلى قول الأمم الخالية : (ابشرا منا واحدا نتبعه)[٣] ، (ما أنتم إلا بشر مثلنا) [٤] ، (أألقى الذكر عليه من بيننا) [٥] ونحو ذلك ، لأنهم استشعروا من كونه منهم مساواتهم له ، ثم رأوا تخصيصه بإنذارهم ترجيحا من غير مرجح فأنكروه لذلك ، والمقدمتان باطلتان.

(فقال الكافرون) عطف على (عجبوا) والأصل : بل عجبوا فقالوا ، ولكن وضع الظاهر موضع الضمير تشنيعا عليهم وتعظيما لمقالتهم (إنكم لتقولون قولا

---

[١] سورة ق : الآية ٣٧ . وينظر القول فى جواب القسم : الفراء ٧٥/٣ ، والمشكل ٣١٨/٢ ، والعكبرى ٢٤١/٢ ، والقرطبى ٣/١٧ ، والبحر ١٢٠/٨ .

[٢] لم اقف عليهما فى كتب الأمثال ، ويبدو أنهما مما أثر من الأمثال المتأخرة .

[٣] سورة القمر : الآية ٢٤ .

[٤] سورة يس : الآية ١٥

[٥] سورة القمر : الآية ٢٥ .

عظيما) [١] (وهذا شيء عجيب) هذا إشارة إلى مجئ منذر منهم ، ثم لما عجبوا من ذلك بقلوبهم نطقوا بمقتضى تعجبهم بألسنتهم ، ثم لما كان من جملة ما أنذرهم به المنذر من عذاب الآخرة الكائن بعد البعث صرحوا بالتعجب منه ، فقال : (أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) وهو استفهام إنكار واستبعاد ، وهذه همزة استفهام دخلت على همزة (إذا) . فصارت (أإذا) و (كنا) أى صرنا ، وكان يقع بمعنى صار ، نحو قوله : .. قطا الحزن ، قد كانت فراخا بيوضها. [٢]

أى صارت . (ذلك) يعنى رجوعنا بعد الموت (رجع بعيد) أى ممتنع ، لأن إحياء الموتى خصوصا بعد التلاشى ممتنع فى قوة البشر ، بعيد عن عقولهم ، ولو لا أن الشرائع فتحت باب جوازه لما أقدم عاقل على تجويزه

قوله عز وجل : (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم)[٣] لما أحالوا البعث أشار الله عز وجل إلى جوازه بالدليل ، وتقريره من الآية وما بعدها : أن المصحح للبعث هو العلم التام والقدرة التامة ، والله عز وجل تام العلم والقدرة ، فبتمام علمه يعلم ما تنقص الأرض منهم من لحم ودم وعظم ، وانحلال ذلك كله إلى الجواهر المفردة ، ويعلم محالها بعد انحلالها ، وهى ثابتة فى الكتاب الحفيظ ، وهو أم الكتاب. أو هو كناية عن كمال العلم الإلهى ، والله عز وجل قادر على تأليف تلك الأجزاء وإعادة ما نقص منها بقدرته التامة ، وأشار إليها بقوله عز وجل : (أفعيينا بالخلق الأول) [٤] فتم بذلك الدليل على إمكان البعث ، وإذا كان ممكنا فلا وجه لإحالته ، ثم إذا أخبر به الصادق وجب الإيمان به ، وقد سبق فى العقيدة تقرير ذلك

---

[١] سورة الإسراء : الآية ٤٠ .

[٢] البيت لابن أحمر ، شرح المفصل ١٠٢/٧ ، واللسان - كون ، وخزانة الأدب ٣١/٤ ، وصدره : بتيها ء قفر ، والمطى كأنه .....

[٣] تمام الآية (..... وعندنا كتاب حفيظ) .

[٤] سورة ق : الآية ١٥ .

(حفيظ) : بمعنى حافظ لما فيه ، أو محفوظ ، نحو : (بل هو قرآن مجيد * فى لوح محفوظ)[١] والمقصود على القولين أن ما فى هذا الكتاب محفوظ لا يتغير ولا يتبدل .

قوله عز وجل : (بل كذبوا بالحق لما جاءهم) الآية ، هذا إضراب ثان ، فهو إما بدل من الأول ، أو هو مستقل [٢] ، والتقدير : إن رجعهم بعد الموت ليس محالا ، وقد بينا إمكانه ، بل هم قوم مكذبون بالحق معاندون له ، والحق هو القرآن أو الإخبار بالبعث مع قيام دليله . النبى ، أو الإسلام ، وكلها متلازمة . وقوله عز وجل : (لما جاءهم) أى حين مجيئه إياهم ، فهى ظرف للتكذيب . وفى (لما) إشارة إلى شدة التشنيع عليهم حيث بادهوا بتكذيب الحق من غير تروٍ ولا نظر ، ونظيره قوله عز وجل : (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين)[٣] . و(جاءهم) بمعنى بلغهم أو وصل إليهم ، أو أدركوه ، أو علموه ، لأن المعانى لا يتأتى منها المجىء حقيقة ، أو : لما جيئوا به ، اللهم إلا أنه يراد بالحق الرسول ، فيصبح المجىء الحقيقى فيه .

(فهم فى أمر مريج) الفاء معناها السببية ، لأن تكذيبهم بالحق أوجب لهم الاختلاط فى أمرهم ، ولو صدقوا به كغيرهم لما اختلط عليهم أمر ، والمراد بالأمر الاعتقاد ، أى هم فى اعتقاد مختلط ، وهو معنى المريج ، ومنها مارج النار لاختلاطه من دخان ونار . ومرجت أحوال القوم : اختلطت ، فهم مترددون بين الإيمان والإنكار ، وإمكان البعث وامتناعه . و (مريج) " فعيل " بمعنى " مفعول " ، أى ممروج مخلوط ، فهذا دليل من أدلة البعث . ثم شرع فى غيره من أدلته ، فقال عز وجل :

---

[١] سورة البروج : الآية ٢١ ، ٢٢

[٢] البحر ١٢١/٨ .

[٣] سورة سبأ : الآية ٤٣ .

(أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها ...) الآية . هذا أيضا استفهام إنكار ، وفيه معنى التبليد ، أى : هؤلاء بلداء حيث لم ينظروا فى خلق السماء فيستدلوا به على ما أنكروه من البعث . وطريق ذلك ما مر من أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، وخلق الناس أكبر من إعادتهم، فالقادر على الأكبر بمرتبتين كيف يعجز عن الفعل الأصغر ، والمراد بالنظر ها هنا نظر العين ، ولهذا عداه بـ (إلى) ثم يترتب على نظر العين نظر القلب ، ونحوه (وجوه يومئذ ناضرة . ربها ناظرة) [١] (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت [٢] . و(بنيناها) رفعناها هى البناء ، (والسماء بنيناها بأيد) [٣] والبناء حقيقة هو المشاهد : وهو وضع اللبن ونحوه بعضه على بعض مباشرة ، والله عز وجل يقول للشيء كن فيكون ، ويجوز أن يكون إنشاء السماء والأرض من الله عز وجل على هيئة إنشائه لهما بناء حقيقيا بالنسبة إليه عز وجل . (وزيناها) يعنى بالنجوم كما ذكر فى " الصافات " " وتبارك " [٤] وغيرهما . (ومالها من فروج) أى هى مصمتة لا خرق فيها ، ولعل الإشارة إليه بقوله عز وجل : (الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فتور) [٥] جمع فطر: وهو الصدع ، ومنه : (السماء منفطر به) [٦] (تكاد السموات يتفطرون من فوقهن) [٧] .

---

[١] سورة القيامة : ٢٢،٢٣

[٢] سورة الغاشية : الآية ١٧

[٣] سورة الذاريات : الآية ٤٧

[٤] فى قوله تعالى فى سورة الصافات الآية ٦ : (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) وفى سورة الملك الآية ٥ : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ...)

[٥] سورة الملك الآية ٣

[٦] سورة المزمل : الآية ١٨

[٧] سورة الشورى : الآية ٥

فإن قيل : إذا لم يكن للسماء فروج فمن أين تنزل الملائكة وتصعد ؟ فالجواب : يحتمل أن لها أبوابا معدة للصعود والنزول ، وقد ثبت فى حديث المعراج أن جبريل كان يستفتح عند وصوله كل سماء [٦] وذلك يدل على ما قلنا .

والنفى وقع للفروج لا للأبواب . ويحتمل أن الملائكة تخترقها صاعدة ونازلة كحركة السمك فى الماء . والطير فى الهواء ، من غير انخراق مستقر ، ولا حجة للفلاسفة فى هذا ، على أن العلل لا تقبل الحرق والالتئام ، لأن الآية إنما نفت الفروج عن السماء بالفعل لا بالقولة .

قوله عز وجل : (والأرض مددناها) الآية (الأرض) نصب من باب: زيدا ضربته (والقمر قدرناه)[٢] من باب الاشتغال . و (مددناها) بسطناها ودحوناها بعد أن كانت رابية مجتمعة . (وألقينا فيها رواسى) وضعنا فيها جبالا رواسى ثوابت متغلغلة فيها لتمسكها أن تميد بالخلق . ورسا ورسب متقاربان فى المعنى ، غير أن رسا فى الجامد ورسب فى المائع [٣] ، هذا هو المعروف ، وقد يستعمل أحدهما بمعنى الآخر ومنه (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيف يسمى الرسوب) [٤] يرسب فى الضريبة وينزل فيها ، (وأنبتنا فيها ، (وأنبتنا فيها من كل زوج) صنف من النبات (سبحان الذى خلق الأزواج كلها) [٥] (أو لم يروا إلى الأرض كم انبتنا فيها من كل زوج كريم) [٦] (بهيج) مبهج ، يؤثر لمن يراه بهجة

---

[٦] ينظر البخارى (الفتح) كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة ٣٠٢/٦

[٢] سورة يس : الآية ٣٩ .

[٣] ينظر المقاييس ٣٩٤/٢ ، ٣٩٥

[٤] طبقات ابن سعد ٤٨٦/١ ، والنهاية ٢٢٠/٢

[٥] سورة يس : الآية ٣٦

[٦] سورة الشعراء : الآية ٧

وراحة فى الكلام المشهور : (ثلاثة تنفى عن القلب الحزن : الماء والخضرة والوجه الحسن) [١] .

(تبصرة وذكرى) أى فعلنا ذلك للتبصرة [٢] : أى ليتبصر به (الكل عبد منيب) ويتذكر به فيعرف صانعه بآثاره المتقنة . والمنيب : الراجع إلى الله عز وجل بالإيمان والطاعة ، من أناب ينيب إنابة ، فهو منيب ، وقد بينا وجه دلالة خلق السماء والأرض على إعادة الخلق ، فهذا دليل ثان .

قوله عز وجل : (ونزلنا من السماء ماء مباركا ...) الآية ، فهذا دليل ثالث ، على البعث ، وقد صرح به بقوله عز وجل : (وكذلك الخروج)[٣] يعنى خروج الموتى أحياء من الأرض ، وفى آخر السورة : (ذلك يوم الخروج) [٤] ونزلنا وأنزلنا بمعنى ، وربما فرق بينهما بأن التنزيل يقتضى تكثيرا أو تكرارا بخلاف الإنزال ، وفيه نظر ، بدليل : (لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة)[٥] (من السماء) (من) لابتداء الغاية ، و (السماء): كل ما علا فأظل والماء المبارك : المطر . واختلف فى المطر . هل ينزل من فوق السماء أو من جهتها من دونها ، فيه خلاف ، والثانى أشبه . وسمى المطر مباركا لأنه من دونها ، فيه خلاف ، والثانى أشبه . وسمى المطر مباركا لأنه من الجهة المباركة التى هى قبلة الدعاء ومحل الملائكة وغير ذلك. ونقل عن على رضى الله عنه أنه قال : " من مرض

---

[١] روى : (ثلاثة يجلين البصر ...) وقيل : إنه من الحديث الشريف ، وضعف . ينظر كشف الخفاء ٣٨٦/١ ، وفيض القدير ٣١٣/٣ ، وضعيف الجامع الصغير ٦٢/٣

[٢] أى مفعول لأجله : ويعرب مفعولا مطلقا ، والفعل محذوف تقديره : بصر ، وذكر ، كما يعرب حالا . ينظر العكبرى ٢٤١/٢ ، والبحر ١٢١/٨

[٣] سورة ق : الآية ١١

[٤] سورة ق الآية ٤٢

[٥] سورة الفرقان : الآية ٣٢

فليأخذ ماء المطر وشيئا من صداق امرأته يشترى به شيئا من عسل ، فيمزجه بالماء ، وليأكله ، يبرأ إن شاء الله عز وجل " ليجمع بين المبارك والهنيء والشفاء [١] يعنى قول الله عز وجل : (ونزلنا من السماء ماء مباركا) ، (فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا) [٢](فيه شفاء للناس)[٣] (فأنبتنا) أخرجنا (به) بسببه (جنات) بساتين (وحب الحصيد) ظاهر هذا إضافة الشيء إلى نفسه، إذ الحب هو الحصيد ، وهو رأى الكوفيين ، منع ذلك البصريون لاقتضاء الإضافة شيئين متغايرين : مضافا ومضافا إليه ، وتأولوا هذا وأمثاله مثل : دار الآخرة ، وصلاة الأولى ومسجد الجامع ، على حذف مضاف : أى صلاة الساعة الأولى ، ودار الكرة الآخرة ، ومسجد الموضع الجامع ، وحب العصف الحصيد [٤] . ولا نسلم أن الحب هو الحصيد ، بل الحصيد العصف وهو التبن، ويسمى الجل ، والحب مضافا إليه ، والمراد : أنبتنا به التمر والزرع . (والنخل) عطف على (جنات) أى وأنبتنا به النخل ، دليلُهُ : (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء) [٥] الآية . ويحتمل عطفه على محل (إلى السماء) تقديره : أفلم ينظروا إلى السماء.[٦]

(والنخل باسقات) عاليات مرتفعات . يقال بسق : إذا علا وارتفع ، ومقلوبه سبق ، وفيه معنى العلو معنى أو حسا ، كسهمين مرتفعين فى الجو يسبق أحدهما الآخر . و (باسقات) نصب على الحال ، على تقدير : أفلم يروها باسقات.

---

[١] ينظر القرطبى ٥/٢٧ .

[٢] سورة النساء : الآية ٤ .

[٣] سورة النحل : الآية ٦٩.

[٤] ينظر الفراء ٣/٧٦ ، والمشكل ٢/٣١٩ ، والقرطبى ١٧/٦ ، والعكبرى ٢/٢٤١ ، والبحر ٨/١٢١.

[٥] سورة الأنعام : الآية ٩٩ .

[٦] اقتصر العكبرى ٢/٢٤١، على الأول .

أو : وأنبتنا النخل باسقات ، فيكون حالا مقدرة ، إذ حال إنباتها لم تكن باسقة وإنما بسقت بعد ذلك [١] والنخل جمع نخلة ، ولهذا جمع باسقات جمع المؤنث ، ولو أريد بالنخل اسم الجنس لقال باسق ، على أنه يجوز ملاحظة الجمع فى اسم الجنس ، فيريد بالباسقات جنس النخل . فإن قلت: إن أريد بالنخل العموم فليس جميعه باسقا ، وإن أريد بعضه وهو الباسق منه فهو خلاف ظاهر العموم . فالجواب : يجوز أن يراد به العموم ، وينزل على القدر المشترك من البسوق فى النخل ولو طول ذراع فإنه طول ، إذ الطول والقصر معنيان إضافيان ، ويجوز أن يراد البعض وهو النخل الطوال ، ويكون لفظا عاما أريد به الخاص . وقوله عز وجل : (لها) أى للنخل (طلع) وهو ثمرها أول ظهوره ، مشتقا من طلع يطلع : إذا ظهر ، وأضيف إليها لأنها محله ومستقره ، والإضافة تتحقق بأدنى ملابسة قوله عز وجل : (نضيد) منضود ، والنضد : النظم ، ومن المشاهد أن عراجين النخل فى سائر أحوالها تشبه العقد المنظوم . والنظيم والنضيد متقاربان لفظا ومعنى .

قوله عز وجل : (رزقا للعباد) يجوز نصبه على القطع على رأى الكوفيين[٢] ، ويجوز أن يكون عطفا على (جنات) أو بدلا منه ، أى فأنبتنا به جنات رزقا ، ويجوز أن ينتصب بفعل مضمر : أى أنبتنا ذلك أو جعلناه رزقا للعباد يأكلونه قوتا وفاكهة وغذاء ودواء وما كان من ذلك [٣] (وأحيينا به) أى بالماء (بلدة ميتا) وإحياء الأرض : إخطابها بعد اجدابها ، لأن الخصب لها كالحياة للبدن ، والجدب كالموت بجامع الحلية والعطلة ، والإنس والوحشة . وقال : " بلدة ميتا " على تأويل البلد ، فهو تذكير على المعنى [٤] (كذلك الخروج) أى كما أخرجنا من الأرض ما

---

[١] البحر ٢٢/٨

[٢] يعنى مصطلح القطع عند الكوفيين أنه مفعول به لفعل محذوف ، أو حال .

[٣] أجاز العلماء فيه أوجها : أن يكون مفعولا من أجله ، أو مفعولا مطلقا ، أو حالا . ينظر المشكل ٣١٩/٢ ، والعكبرى ٢٤١/٢ ، والبحر ١٢٢/٨

[٤] قال القرطبى ٧/١٧ ، وقالك (ميتا) لأن المقصود المكان ، ولو قال ميتة لجاز .

ذكرنا من الجنات والحب نخرج الموتى عند البعث ، هذه ثلاثة أدلة على البعث ، وفى ضمنها دليل على غيرها من الاستدلال على وجود الصانع وحكمته ونحو ذلك مما ذكر .

قوله عز وجل : (كذبت قبلهم) أى قبل الكفار الذين قالوا (هذا شيء عجيب) [١] (قوم نوح وأصحاب الرس) هو البئر، ولعله البئر المعطلة المذكورة فى سورة الحج [٢] ، ومادة " رس " تفيد : معنى العمق والنزول [٣] ، وفى البئر معنى ذلك ، ورسيس الوجد : ما تغلغل منه فى القلب ونزل إلى أعماقه ، ولهذه البئر قصة مشهورة (وثمود . وعاد وفرعون وإخوان لوط . وأصحاب الأيكة) هم من قوم شعيب : (كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، إذ قال لهم شعيب ألا تتقون) [٤] وهو أرسل إلى طائفتين : مدين وهم قومه ، وأصحاب الأيكة وهم أجانب [٥] منه ولذلك قال عز وجل : (وإلى مدين أخاهم شعيبا) [٦] وقال : (كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب) ولم يقل أخوهم و (قوم تبع) هم ملوك اليمين [٧] (كل) أى كل واحد من هذه الأمم ، أو : كل فريق منهم (كذب الرسل) لأن الرسل جاءوا جميعا من عند الله عز وجل ، يدعون إلى توحيده والإيمان به،فدعواهم واحدة، فتكذيب أحدهم تكذيب جميعهم وهذا هو الجواب عن كل موضع أضيف فيه تكذيب الرسل إلى طائفة واحدة ذات رسول واحد (فحق وعيد) أى استحقوه ووجب لهم فى حكم العدل والتقدير حق موجب وعيد وهو تعذيبهم وإهلاكهم ، والوعيد:

---

[١] فى الآية الثامنة من هذه السورة

[٢] فى قوله تعالى – الآية ٤٥ : (وبئر معطلة وقصر مشيد) وينظر القرطبى ٧٥/١٣

[٣] فى المقاييس ٣٧٢/٢ ، أن المادة تدل على الثبات .

[٤] سورة الشعراء : الآيتان ١٧٦/١٧٧

[٥] ينظر القرطبى ٨٤/٩ ، ٤٥/١٠ ١٣٥/١٣ .

[٦] سورة الأعراف : الآية ٨٥

[٧] الطبرى ٧٧/٢٥ ، والقرطبى ١٤٤/١٦

الإخبار بوقوع الشر ، وضده الوعد . قوله عز وجل : (أفعيينا بالخلق الأول..) الآية استفهام إنكار عليهم ، أى أعجزنا عن خلقكم أول مرة حتى عن إعادتكم ؟ وهو دليل رابع على البعث، قياسا على الإبداء بطريق أولى كما مر فى العقيدة ، يقال على الرجل بأمره : إذا تحير فيه ولم يستقل، قال الشاعر:

عيوا بأمرهم كما عيت ببيضتها حمامه
جعلت لها عودين من نشم ، وآخر من ثمامه [١]

(بل) أى لم نعى بالخلق الأول حتى نعيى البعث(بل هم)يعنى منكرى البعث (فى لبس) أى شك وإشكال (من خلق جديد) أى يختلط عليهم أمر البعث فلا تدركه عقولهم كل الإدراك ، ولا يأخذونه مسلما عن الشرع . (الجديد) صفة (الخلق الأول وهو هذا الذى نحن فيه يدثر ويتلاشى ، فالإعادة تكون خلقا جديدا .

قوله عز وجل : (ولقد خلقنا الإنسان) أنشأناه واخترعناه (ونعلم) أى ونحن نعلم ، ولولا هذا التقدير للزم عطف المضارع على الماضى وهو (نعلم) على (خلقنا) وفيه ما فيه [٢] (ماتوسوس) [٣] أى وسوسة نفسه : وهو حديثها الخفى (إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون) [٤] وقد قال النبى –صلى الله عليه وسلم – :

---

[١] اللسان – لعبيد بن الأبرص ، وهما فى ديوانه ١٣٨ ، ورواية الأول فى الديوان :
برمت بنو أسد كما برمت ....
والنشم :شجر تتخذ منه القسى . والثمام نبت ضعيف .
[٢] جوز العكبرى ٢/ ٢٤١أن تكون الجملة حالا مقدرة ، أو مستأنفة .
[٣] تمام لآية(.... ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب ....)
[٤] سورة الأنبياء: الآية ١١.

" إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تكلم " [١] (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) هذه القرب عند المفسرين بالعلم [٢] نحو: (وهو معكم أينما كنتم) [٣] و(ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) [٤] وعند الحلولية هو قرب بالذات ، لأن الرب جل جلاله حال فى خلقه عندهم ... تعالى عما يقول الظالمون " حبل الوريد " هو من الإضافة كـ (حب الحصيد) وفى الحقيقة هو عرق سار فى البدن ، ففى الحلق يسمى وريدا وفى الظهر أبهر ، وفى القلب أو الصدروتين ، وفى الرجل نسا وجميع هذه الأسماء واردة فى الكتاب كالوريد والوتين ، وفى السنة كالأبهر والنسا [٥] .

قوله عز زجل : (إذا يتلقى المتلقيان) الآية (إذ) متعلق إما بـ (أقرب) قبلها : أى نحن أقرب إليه حين يتلقى المتلقيان ، يعنى المحافظين يتلقيان كلما يقع منه فيكتبانه أو بـ (ما يلفظ من قول) [٦] أى : ما يلفظ من قول حين يتلقى المتلقيان كلامه إلا لديه رقيب وهو الملكان . فإن قيل : على التقدير الأول يلزم ألا يكون أقرب إليه من حبل الوريد إلا فى حال تلقى المتلقيين . قلنا : إن لزم ذلك فاللفظ لا عموم فيه يقتضى حصول القرب منه فى عموم الأوقات ، ولئن كان فيه عموم يفيد ذلك ، أثبتنا القرب منه فيما عدا وقت تلقى المتلقيين بدليل منفصل . (عن

---

[١] صحيح البخارى – كتاب العتق باب الخطأ والنسيان فى العتاقة والطلاق ونحوه ولا عتاقه إلا لوجه الله ، جـ٣ ص٦٣٤ ط دار الحديث القاهرة وصحيح مسلم – كتاب الإيمان باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر – جـ ١ ص ١١٦ ط دار الحديث .

[٢] قال القرطبى ١٧ / ٩ وهذا القرب العلم والقدرة .

[٣] سورة الحديد : الآية٤ .

[٤] سورة المجادلة : الآية ٧ .

[٥] وردت كلمة الوتين فى قوله تعالى : (ثم لقطعنا منه الوتين)سورة الحاقة : الآية ٤٦ . ولفظة الأبهر فى البخارى – المغازى٨/ ١٣١ ، ولفظة النسا فى السند ٣/ ٢١٩ ، ٥/ ٧٨ .

[٦] ينظر العكبرى ٢/ ٢٤١ .

اليمين وعن الشمال قعيد) هذه الجملة فى موضع حال ، أى إذا تلقى المتلقيان حال قعودها عن يمينه وشماله . و(قعيد) : قاعد ، والمعنى عن يمينه وشماله . ولام تعاقب الإضافة فتشعر بها وتدل عليها ، أو يكون التقدير : عن اليمين والشمال منه.

(وما يلفظ) أى يلقى ويرمى ، واللفظ : الرمى والإلقاء ، شبه القول المنطوق به بجسم يرمى به (من قول) من هذه جنسية مؤكدة للنفى . والرقيب:الحافظ على الدوام من غير غفلة . و(العتيد) : فعيل من : اعتد الشيء: إذا حصله وانتظر به فعل ما وضع له . و (لديه) [1] عنده . و (لديه) أخص مطلقا أو من وجه ، لأن " عند " تصدق على ما كان حاضرا من جميع الجهات الست ، (ولدى) كأنه يختص بجهة إمام : وهى جهة اليدين . والقول هل يعم كل ملفوظ به أو يختص بالكلام المفيد ؟ فيه خلاف ن وعليه يخرج ما يكتبه الملكان ، فهذه حال الإنسان فى وقت حياته من كونه مراقبا محفوظا عليه .

ثم ذكر من هاهنا حاله من حين الموت إلى حين البعث وما بعده ، فقال عز وجل : (وجاءت سكرة الموت بالحق) الآية . (جاءت) أى حل وقتها ، والسكرة : واحدة السكرات ، وهى حالة مغيبة للذهن ، ولكنها إذا كانت بالخمر صحبتها لذة ، وإذا كانت بالموت ونحوه صحبها ألم ، وأضيف السكرة إلى الموت لأنه سببها ، ومعنى مجيئها بالحق أن الميت لا ظلم عليه بها لأنه عبد يتصرف فيه ربه عز وجل بما يختار ، غير ظالم له ، أو أنها جاءت بلقاء الله عز وجل والمصير إلى الآخرة ، وذلك حق .(ذلك) أى يقال له لو أنه مقول له بلسان الحال ذلك : أى هذا الموت (ما كنت منه تحيد) أى تتقيه وتجتنبه وتميل عنه إذا أحسست سببه ، وأشير إلى الموت الحاضر بلفظ الغائب تعظيما له ، كما قيل فى (ذلك الكتاب) .[2]

---

[1] تمام الآية ١٨ (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)

[2] سورة البقرة : الآية ٢ .

(ونفخ فى الصور) وهو قرن سعته السموات والأرض ، ينفخ فيه إسرافيل ، فتخرج الأرواح منه إلى أجسادها [١] وعبر عنه بلفظ الماضى إشارة إلى تحقيق وقوعه ، حتى كأنه مضى وانقضى . (ذلك يوم الوعيد) أى يوم بقع فيه الوعيد بأهله .

(وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) جملة فى محل الحال ، أى : جاءت مصاحبة للسائق والشهيد .[٢] والظاهر أنهما الملكان الحافظان ، أحدهما يسوقه إلى موقف الحساب ، وكلاهما شاهد عليه بما حفظا عنه أو كلاهما يسوقه ويشهد عليه ، أو هما الشهيد عليه والسائق غيرهما كل ذلك محتمل [٣] .

(لقد) أى يقال لكل إنسان : لقد كنت فى غفلة من هذا) أى من هذا المقام أو المنقلب أو الحال أو الموقف والحساب ، ولما كانت الغفلة غالبة عليه جعلت ظرفا له مجازا ، لأن الظرف يحيط بالمظروف من جميع جهاته ، والغفلة : الذهول عن الشىء ، ويلتقى معناها ومعنى الغفلة على معنى التغطية بالجملة ، و(من هذا) : أما بمعنى عن لأن غفل يتعدى بعن لا بمن ، أو أن من ابتدائية أى ابتداء غفلتك هذا المشار إليه ، لأنه لما كان هو المغفول عنه صار كأنه سبب الغفلة . (فكشفنا عنك غطاءك) أى حجابك الذى غطاه عنك ، والدنيا حجاب عن الآخرة ، فإذا فارقها الإنسان عاين أمور الآخرة ، وهذا يشترط الكفر وإلا فمن أولياء الله المؤمنين من يقول وهو فى الدنيا : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا ، لأن إيمانه كشف عنه حجاب الدنيا (فبصرك اليوم حديد) . أى قوى سديد الإدراك ، وهو فعيل من الحدة ، أو

---

[١] ينظر الطبرى ٧/ ١٥٧ ، والقرطبى ٧/ ٢٠ .

[٢] قال العكبرى ٢/ ٢٤١ : الجملة صفة لـ (نفس) أو (كل) أو حال من (كل) وجاز فيه من العموم .

[٣] ينظر الطبرى ٢٦ / ١٠١ ، والقرطبى ١٧ / ١٤ ، والبحر ٨/ ١٢٤ .

الحديد ، فأنت تدرك به ما كان يخفى عنك (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل [١] ، (وبدأ لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) [٢] .

قوله عز وجل : (وقال قرينه هذا ما لدى عتيد) قرينه حفيظه المقارن له فى الدنيا [٣] هذا إشارة إلى عمله المحفوظ عليه (ما) يعنى الذى لدى من عمله (عتيد) معد لحسابه عليه .

(ألقيا) أى يقال للزبانية ونحوهم (ألقيا فى جهنم) والأمر فى اللفظ لاثنين ، أما فى الحقيقة ، فالمأمور قيل : اثنان توفيقا بين المعنى واللفظ ، وقيل : يجوز أن يكون واحدا ، وثنى ضميره إشارة إلى فظاظته وغلظته حتى إنه قائم مقام اثنين ، أو نظر إلى غالب حال من له أمر من العرب وغيرهم أن أقل ما يكون فى خدمته اثنان ، فيقول أحدهم لخادمه الواحد قوما واقعدا أو افعلا .

وقال الحجاج : يا حرسى ، اضربا عنقه . ويحتمل أن (ألقيا) أمر واحد مؤكد بنون خفيفة قلبت ألفا إجراء للوصل مجرى الوقف . وقيل : التثنية للفعل لا للضمير ، والتقدير ألق ألق ، يكرر عليه الأمر تأكيدا [٤] . (كل كفار عنيد) معاند فى الحق ، كما حكى عنهم من (إنهم لا يكذبون ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)[٥] (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) [٦] .

---

[١] سورة الأنعام : الآية ٢٨ .

[٢] سورة الزمر : الآية ٤٧ .

[٣] الطبرى ٢٦ / ١٠٣ ، والقرطبى ١٧ / ١٦

[٤] ينظر الفراء ٣/ ٧٨ ، والمشكل ٢/ ٣٢١ ، والطبرى ٢٦ / ١٠٣ ، والقرطبى ١٧ / ١٦ ، والعكبرى ٢/٢٤٢ .

[٥] سورة الأنعام : الآية ٣٣ .

[٦] سورة النمل : الآية ١٤ .

(مناع للخير) يحتمل أن المراد وصفة بعموم منع الخير ، كما قال عز وجل : (ويمنعون الماعون) [١] ويحتمل أن المراد يمنع الإيمان نفسه بإعراضه عنه وغيره يصده عنه . (معتد) مفتعل من العدوان بتركه للإيمان وغيره مما يجب عليه (مريب) مرتاب غير مؤمن ، أو فاعل للريب ، يقال : أراب فهو مريب : إذا أتى بما يريب .

(الذى جعل مع الله إلها آخر) أى أشرك (فألقياه) عطف على (ألقيا فى جهنم) وليس ذلك تكرارا ، لأن الثانى أخص من الأول ، إذ الأول أمر بإلقائه فى جهنم ، والثانى بإلقائه (فى العذاب الشديد) منها ، فهو مفيد زيادة عما أفاده الأول.

فإن قيل : كافر ومانع للخير أعم من كفار ومناع ، فقد كان الأمر بإلقائهما بهذه الصيغة أبلغ لعموم ذلك من اتصف بعموم الكفر والمنع وخصوصهما ، فلم عدل عن ذلك إلى صيغة المبالغة ؟ فالجواب أنه يحتمل أن فى هذا الكلام تعريضا بمعين من الكفار ، متصف بهذه الصفات على المبالغة فيها كأبى جهل ونحوه :، نحو : (ذق إنك أنت العزيز الكريم) [٢] ، (أرأيت الذى ينهى . عبدا إذا صلى) [٣] فصار ذلك كالسبب للآية جرت عليه ، ويحتمل أ، ذلك وضع لصيغة المبالغة موضع غيرها تنبيهاً على أن كل كافر تنتهى حاله فى الكفر والمنع إلى المبالغة ، أو تنبيهاً على أن كفار العرب المخاطبين بهذا الخطاب كانوا كذلك .

قوله عز وجل : (قال قرينه) المراد به قرينه الشيطانى الجارى منه مجرى الدم ، الموسوس (ربنا ما أطغيته) أى ما حملته على الطغيان (ولكن كان فى

---

[١] سورة الماعون : الآية ٧ .

[٢] سورة الدخان : الآية ٤٩ .

[٣] سورة العلق : الآية ٩، ١٠ .

ضلال بعيد) أى عن الهدى وقبول الحق ، أى طبعه الشرير كان يغنيه عن إطغـــائى له.

(قال) يعنى الله عز وجل (لا تختصموا لدى) أى عندى ، أو بين يـــدى ، وهذا يقال لكل إنسان وقرينه ، فلذلك جمع الضمير فى (تختصمـــوا) (وقـــد قدمـــت إليكم بالوعيد) أى تقدمت أو بادرت إليكم به ، ويحتمل زيادة الباء ، أى قدمته إليكـــم ، والمعنى أن هذا معنى الانتقام ، لا وقت الخصام ، ويحتمل أن هـــذه إشـــارة إلـــى خصومة النفس والجسد ، فتقول الروح : إن الجسد كان مركبى إلـــى المعصيـــة ولا ذنب لى : ويقول الجسد : إنما أنا جماد لولا الروح ، فنضرب لهما مثل أعمى صحيح حمل مقعداً بصيراً حتى اقتطف ثمرة فأكلاهـــا جميعـــا ، هـــل الـــدرك [١] عليـــهما ؟ فيقولان: نعم ، فيقال : قضيتما على أنفسكما ، وحينئذ يقال : لا تختصما ، لأن الحكـم يقطع الخصام .

(ما يبدل القول لدى) أى قولى الذى تقدم بوعيد العصاة لا يبدل ولا أخلفـه، والمعنى أن قولى محفوظ عندى من التبديل والخلف (ولا مبـــدل لكلمـــات الله) [٢] (وما أنا بظلام للعبيد) يحتمل أن المراد أنى لا أظلمهم سوء عاقبتهم بذنب أو غـــيره ، لأنهم ملكى ، ولى التصرف فيهم بكل حال ، ويحتمل أن المـــراد أنـــى لا أظلمـــهم فأعذبهم بغير ذنب ، ويكون هذا خارجاً مخرج العرف : من أن العقوبة بغير ذنب ظلم ، أما كونه عز وجل قال : (وما أنا بظلام) ولم يقل " بظالم " فنفى الظلامة التى هى أخص دون الظالمية التى هى أعم ، وقد كان نفيها أبلغ فى نفـــى الظلـــم ، فيحتمـــل وجوهاً :

---

[١] الدرك : التبعة .

[٢] سورة الأنعام الآية ٣٤ .

أحدها : أنه وضع ظلاماً موضع ظالم ، لأن لفظ الآية أعدل وأقرب إلى تناسب أجزاء الكلام .

الثانى : لعل ذلك خرج رداً على من زعم أن الله عز وجل ظلام للعبيد بهذه الصيغة ، فنفى الله عز وجل ما أثبته ذلك القائل بصيغته ، الثالث : لعله إشارة إلى أن من عاقب عبده بغير جناية ظلام له مبالغ فى الظلم ، والله عز وجل لا يفعل ذلك ، فليس ظلاماً كغيره .[١]

قوله عز وجل : (يوم نقول لجهنم هل امتلأت) الآية ، الظرف متعلق بمضمون هذه الجملة [٢] ، أى يكون ما ذكرناه من الحساب والخصام والشهادة فى هذا اليوم : يقول نقول لجهنم هل امتلأت ، هذا فيه إشكال ، لأن هذا الاستفهام لا يجوز أن يكون على أصله فى الاستخبار ، لأن الإله جل جلاله لا يخفى عنه شئ حتى يستفهم عنه ، ولا يجوز أن يكون تقريراً ، أى قد امتلأت لأنها لو امتلأت لم تسأل المزيد .

وحل هذا الإشكال بالتزام القسم الثانى ، وهو أنه تقرير ، غير أنها امتلأت امتلاء لا يمنعها من احتمال الزيادة ، كأول مراتب الشبع لا يمنع من قبول لقمة وعشر ، ونحو ذلك [٣] . (وتقول) يعنى جهنم تقول : (هل من مزيد) يعنى من العصاة الذين يلقون فيها ، أى زيدونى ، تغيظاً وحنقاً عليهم ، وغضباً لله عز وجل على من عصاه (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً) [٤] الآيتين .

---

[١] ينظر القرطبى ٣٧٠/١٥ ، والبحر ١٣١/٣ .

[٢] ينظر الدر المصون ٧٥ .

[٣] ينظر القرطبى ١٨/١٧ ، والبحر ١٢٧/٨ .

[٤] سورة الفرقان : الآية ١٢ . وربما أراد بالآيتين : هذه ، وقوله تعالى فى سورة الملك : الآية ٨ (تكاد تميز من الغيظ ...)

قوله عز وجل : (وأزلفت) أى قربت (الجنة للمتقين) لأجلهم ليدخلوها (غير بعيد) يحتمل هذا البعد أن يكون مكانياً ، وأن يكون زمانياً ، ومحل (غير بعيد) النصب نعتاً لمصدر محذوف ، أى أزلفت إزلافاً ، أو قربت تقريباً غير بعيد ،أو حالاً تقديره ، قربت حال كونها غير بعيدة عنهم ويفيد المبالغة فى تقريبها لهم [١] .

(هذا) أى ويقال لهم : (هذا ما توعدون) أى ما وعدتم ، أو كنتم توعدون ، أو لوحظ فيه حال الخطاب فجرى على الاستقبال ، لأن إزلاف الجنة بالنسبة إلى حال نزول القرآن مستقبل (لكل) خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف، أى هذا لكل (أواب) رجاع عن معصية الله إلى تقوى الله عز وجل (حفيظ) حافظ لنفسه عن المعصية . (والذين هم لفروجهم حافظون) [٢] . أو يكون المراد حافظ لعهد الله عز وجل ووصاياه (والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) [٣] .

(من خشى الرحمن بالغيب) هذا نعت لـ(حفيظ) أى لكل أواب حفيظ خاش لله [٤] ، ومعنى خشية الرحمن بالغيب مراقبته حال عدم معاينة الإنسان له ، لأن الغيب لا يثبت بالإضافة إلى الله عز وجل ، إذ لا يغيب عنه شئ وإنما يثبت بالإضافة إلى العبد : " أعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[٥] والباء

---

[١] ينظر العكبرى ٢٤٢/٢ ، والبحر ١٢٧/٨ .

[٢] سورة المؤمنون : الآية ٥ .

[٣] سورة التوبة : الآية ١١٢ .

[٤] قال العكبرى ٢٤٢/٢ : (من خشى) فى موضعه رفع ، أى : هو من خشى ، أو فى موضع جر بدلاً من (المتقين) ، أو (من كل أواب) أو فى موضع نصب ، أى : أعنى من خشى ، وقيل (من) مبتدأ والخبر محذوف تقديره : يقال لهم ادخلوها وينظر البحر ١٧٢/٢ .

[٥] صحيح البخارى كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبى ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة - جـ١ ص٢٠ طبعة دار الحديث .

ظرفية . أى يخشاه فى حال الغيب . (وجاء) يعنى ربه (بقلب منيب) راجع إلى طاعته عن معصيته نحو (إلا من أتى الله بقلب سليم) [١] من الكفر ، ونحوه (إذا جاء ربه بقلب سليم) [٢].

(ادخلوها) أى يقال لهم : ادخلوها ، يعنى الجنة (بسلام) أى مسلماً عليكم من أهلها والملائكة الذين فيها (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم)[٣] أو ادخلوها سالمين من نكد دخولها من منع وتبرم ونحو ذلك . (ذلك) أى ذلك اليوم (يوم الخلود) أضيف إلى الخلود لأنه مبدؤ وأول مدته ، والمراد باليوم الوقت ، والخلود : البقاء الدائم غير المنقطع ، ويستعمل فى المقام الطويل وإن انقطع كبقاء الجبال ، ولذلك سميت خوالد[٤] ، ولعل العرب سمتها بذلك لاعتقاد دوامها وعدم زوالها .

(لهم) ولم يقل لكم ، إما لأنه التفات عن الخطاب إلى الغيبة ، أو لأنه راجع إلى المتقين وهو الصواب ، والالتفات لا يتحقق (ما يشاءون) أى الذى يختارون ويريدون مما يصلحهم (فيها) أى فى الجنة . (ولدينا) أى عندنا (مزيد) قيل المزيد هاهنا رؤية الحق جل جلاله [٥] ، كما فى قوله عز وجل : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) [١] وفيه نظر ؛ لأن الرؤية مما يشاءون فكيف تكون زيادة عليه ،

=صحيح مسلم كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى . وبيان الدليل على النبرى ممن لا يؤمن بالقدر ، وإغلاظ القول فى حقه - جـ١ ص٣٧ ط دار الحديث .

[١] سورة الشعراء : الآية ٨٩ .

[٢] سورة الصافات : الآية ٨٤ .

[٣] سورة الرعد : الآية ٢٣،٢٤ .

[٤] ينظر القاموس - خلد .

[٥] الطبرى ١٠٩/٢٦ ، والقرطبى ٢١/١٧ ، والدر المنثور ١٠٨/٦ .

[١] سورة يونس : الآية ٢٦ .

وقد يجاب عن هذا بأن الرؤية وإن كانت مما يشاءون لكن خص بالذكر تشريفاً لـه ، من باب عطف الخاص على العام ، والمختار فى المزيد ها هنا أن المشار إليه بقولـه عز وجل : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة عين) [١] وذلك لأن الله عز وجـل يعلم لهم من الملاذ والمنعة وقرة الأعين ما يخرج عن مشيئتهم ، لأنهم لا يعلمونـه ، فيعلمهم الله عز وجل به ويثيبهم عليه ، فيكون مزيداً على ما يشاءونه لأنه خـارج عن مشيئتهم وعلمهم .

قوله عز وجل : (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) أى من أمة (هم أشد منـهم بطشاً) أى قوة وأثراً ، والبطش : أثر القوة . والقرن مفرد من حيث اللفظ ، جمـع من حيث المعنى ، وبهذا الاعتبار قال (هم) ولم يقل هو أشد .

(**فنقبوا فى البلاد**) **يحتمل وجوهاً** :

أحدها : نقب البيوت فى الجبال (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً) [٢] .

الثانى : السفر فى البلاد سفر بليغاً حتى كأنهم وقفوا على نقابها وغيرانها .

الثالث : البحث عن الأخبار بالسفر فى البلاد [٣] (هل من محيص) أى فلم يكن لـهم محيص ، أى فاسألوا هل كان لهم من محيص ، فإنكم لا تخـبرون بذلـك ، والمحيص : المخلص أو الخلاص ، من حاص يحيص : إذا وجد مخلصاً .

قوله عز وجل : (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلـب) الآيـة . أى فـى إهلاك القرون الماضية وما ذكر من أحوال الآخرة (ذكرى) تذكر وموعظة (لمـن كان له قلب) . كان لها أقسام : ناقصة ، وتامة ، وزائـدة ، وبمعنـى صـار وذات ضمير الشأن ، وقد وجهت للأقسام فى هذه الآية [٤] ، والمراد بالقلب حقيقية ، لأنـه

---

[١] سورة السجدة : الآية ١٧ .

[٢] سورة الحجر : الآية ٨٢ .

[٣] ينظر القرطبى ٣٢/١٧ ، والبحر ١٢٩/٨ .

[٤] نقل ابن هشام فى المغنى ٦١٧ جواز الأوجه الثلاثة فى هذه الآية ، وجعل الزيادة أضعف الثلاثة .

محل الفهم والوعى ، وقيل : المراد العقل ، لأن القلب محله عند قوم ، وقيل : محله الدماغ عند آخرين ، والقولان منصوصان عن أحمد والشافعى ، والخلاف أيضاً بين الفلاسفة فى ذلك ، والأشبه أن محله الدماغ[١]. (أو ألقى السمع) [٢] أى استمع وقلبه شاهد حاضر ، لأن من استمع وقلبه غائب لم ينتفع وكأنه لم يستمع ، وقوله عز وجل : ألقى السمع) استعارة بليغة ، لأنه شبه إصغاء السمع بإلقاء الدلو لإخراج الماء ، تنبيهاً على أن المستمع ينبغى أن يكون كذلك ، حرصاً على الفائدة .

قوله عز وجل : (ولقد خلقنا السموات والأرض) الآية ، نزلت بسبب قول اليهود : إن الله عز وجل لما أكمل خلقه يوم الجمعة استراح يوم السبت[٣] والاستراحة تشعر بتقدم التعب ، فرد الله عز وجل عليهم بقوله سبحانه وتعالى: (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب) أى من تعب ، وعكسه غلوب من الغلبة ، ومن تعب غلب على حركته ، فالمادتان تلتقيان على هذا المعنى ، وربما زعم بعضهم أن النصب تعب القلب، واللغوب تعب البدن ، ومنه (لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب)[٤].

قوله عز وجل : (فاصبر على ما يقولون) هذا خطاب للنبى - ﷺ - والضمير فى (يقولون) لليهود المذكورين ، أو الكفار ، أو للجميع ، وهو أولى ، لأن جميعهم كانوا يسمعونه من الأذى ما يحتاج إلى الصبر عليه (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) أى صل فى هذه الأوقات، والتسبيح يطلق على الصلاة لاشتمالها عليه فى الركوع والسجود ، واشتراكهما فى معنى التنزيه ، وقد وافقت هذه الآية قوله عز وجل : (واستعينوا بالصبر والصلاة) [٥] فى التوجه إلى

---

(١) ينظر القرطبى ١/٣٧٠،٣٧١ .

(٢) تمام الآية ٣٧ (أو ألقى السمع وهو شهيد) .

(٣) الطبرى ٢٦/١١١ ، والقرطبى ١٧/٢٧ ، والدر المنثور ٦/١١٠ .

(٤) سورة فاطر : الآية ٣٥ .

(٥) سورة البقرة : الآية ٤٥ .

الله عز وجل بهما ، و(قبل طلوع الشمس) صلاة الصبح و(قبل الغـروب) الظـهر والعصر (ومن الليل فسبحه) أى بعض الليل وسبحها ، فهى للتبعيـض ، أو اجعـل الليل مبدأ تسبيحك ، فهى لابتداء الغاية ، والأول أشبه ، وتسبيح الليل المـراد هنـا صلاة المغرب والعشاء ، فاستوفت الآية الصلوات الخمس (وأدبار السجود) إشـارة إما إلى التسبيح عقيب الصلاة ، إذ كان التسبيح الأول هو نفس الصلاة ، أو إشـارة إلى صلاة التطوع [١] ، وفى الحديث الصحيح : " إنكم سترون ربكم كما ترون القمـر ليلة البدر ، لا تضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبـل طلـوع الشمس وصلاة بعد غروبها فافعلوا " [٢] وصلاة الفجر والعصر يجتمع فيها ملائكـة الليل والنهار ، فلهما مزية على غيرهما ، ولهذه الآية نظائر فـى جميـع مواقيـت الصلاة فى " سبحان " و " طه " و " الروم " [٣].

قوله عز وجل : (واستمع يوم ينادى المنادى) هو إسرافيل حين ينفخ فـى الصور وهو الداعى الذى يدعو إلى شيء نكر أى : تنكره القلوب وتضطرب له (مـن مكان قريب) أى لشدة ندائه هو قريب من كل أحد بحيث يسمعه ، ويحتمل أن المـراد بالمنادى الله عز وجل حيث ينادى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب كمـا ورد فى الصحيح [٤] ، والأول أولى ، وفى معنى (استمع) احتمالان :

---

[١] الطبرى ١١٢/٢٦ ، والقرطبى ٢٤/١٧ ، والدر المنثور ١١٠/٦ .

[٢] صحيح البخارى كتاب مواقيت الصلاة باب فضل صلاة العصر جـ١ ص ١٤٥ ط دار الحديث صحيـح مسلم كتاب المساجد باب فضل صلاة الصبح والعصر والمحافظة عليهما جـ١ ص ٤٣٩ ط دار الحديث.

[٣] قال تعالى فى سورة " سبحان " الإسراء ٧٨ (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل .....) وقال عز وجل فى سورة طه : الآية ١٣٠ : (سبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها . ومن آناء الليـل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى) . وقال سبحانه وتعالى فى سورة الروم : الآيتان ١٨،١٧ (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون)

[٤] صحيح البخارى كتاب التوحيد باب قول الله تعالى : ولا تنفع الطاعة عنده إلا عن أذن له حتى إذا فـزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير جـ٩ ص٦١٢ ط دار الحديث .

أحدهما: استمع يا محمد هذا الكلام ، وهو أن ينادى هو يوم الخروج ، كما تقول لصاحبك : اسمع كلامى يوم تقدم على هو يوم عيدى ، أو نحو ذلك .

الثانى : استمع فى ذلك اليوم نداء المنادى ، فإنك ترى من حال الكفار عجبا . فيوم ينادى ظرف للاستماع على هذا الوجه دون الأول [١] (يوم يسمعون الصيحة) بدل من (يوم ينادى المنادى) [٢] (بالحق) بالعرض على الله عز وجل ، أو غير مطلق من تسماعها وترويعهم بها (ذلك) يعنى اليوم (يوم الخروج) أى خروج الأموات .

(إنا نحن نحى ونميت) هذا كلام فى غاية التأكيد مثل (إنك أنت الأعلى)[٣] والنون فى نميت ونحيى للعظمة ، لأنهما فعلان عظيمان لا يصدران إلا عن عظيم . واعلم أن الله عز وجل تارة يعبر عن نفسه بنون العظمة تنبيها على عظمته ، وتارة بدونها إشارة إلى توحيده وتفرده واستغنائه عن معين وظهير . و(نحيى ونميت) إن قصد به الترتيب فالمراد الحياة الأولى ، وهى الوجود بعد العدم ، والموتة الأولى ، وهى هذه العامة ، وإن لم يرد الترتيب فالمراد الموت والبعث ، وقد لا يكون المراد شيئا من ذلك ، بل الإخبار بالقدرة على الإحياء والإماتة (وإلينا المصير) المرجع (ثم إلينا ترجعون) [٤] (وإلى الله ترجع الأمور) [٥] والمصير مصدر بمعنى الصيرورة .

قوله عز وجل : (يوم تشقق الأرض عنهم سراعا)[٦] الآية التشقق:التصدع . السراع : العجال . والحشر : الجميع . واليسير : السهل .

---

[١] ينظر الطبرى ١١٤/٢٦ ، والقرطبى ٢٧/٢٧ ، والبحر ١١٠/٦ .

[٢] العكبرى ٢٤٣/٢، والدر المصون .٧٧.

[٣] سورة طه : الآية ٦٨ .

[٤] سورة العنكبوت : الآية ٥٧

[٥] سورة البقرة : الآية ٢١

[٦] تمام الآية ٤٤ : (يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير) .

والمعنى : إلينا المصير فى هذا اليوم ، أو أنها بدل من (يوم ينادى المنادى) يعنى فى هذا اليوم تشقق الأرض – وهى القبور عنهم – فيخرجون سراعا (يومئذ يصدر الناس أشتاتا)[١] (مهطعين إلى الداعى كأنهم إلى نصب يوفضون [٢] والإخبار بيسارة الحشر مناقضة للكافرين الزاعمين صعوبته وإطالته .

قوله عز وجل : (نحن أعلم ...) [٣] الآية . الجبار : المسلط المستدعى الطاعة بطريق الجبر وهذا معنى (لست عليهم بمسيطر) [٤] ثم يحتمل نسخه بآية السيف [٥] ، ويحتمل بقاءه ، ويكون من باب التهديد لهم . والمعنى : نحن أعلم بقولهم وفعلهم من الفعل والأذى ، وسنجازيهم على ذلك ، وإنما عليك البلاغ .

(فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) أى إن الذين تذكرهم بالقرآن ضربان: قاسى القلب شديد التمرد ، ولين القلب سريع الانقياد خائف من وعيد الله عز وجل ، فذكر الناس بالقرآن لتحصيل إيمان هذا الضرب من الناس أو يكون المراد بـ (من يخاف وعيد) المؤمنين مثل : (وذكر فإن نفعت الذكرى تنفع المؤمنين) [٦] .

هذا آخر ما أردناه من تفسير هذه السورة الكريمة ، وقد اشتملت على مطالب شريفة ، كالدليل على التوحيد ، وعلى البعث ، وعلى أحكام اليوم الآخر بضرب من التفصيل ، وأشباه ذلك مما ذكر .

---

[١] سورة الزلزلة : الآية ٦

[٢] سورة القمر : الآية ٨

[٣] تمام الآية (نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر ...)

[٤] سورة الغاشية الآية ٢٢ .

[٥] وهى قوله تعالى فى سورة التوبة : الآية ٥ : (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) . ينظر نواسخ القرآن ٤٧. ، والقرطبى ٢٨/١٧ .

[٦] سورة الذاريات : الآية ٥٥

ثبت المراجع

أولاً : القرآن الكريم .

ثانياً : كتب السنة النبوية الشريفة .

- الاتقان علوم القرآن ، جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر السيوطى ، ت٩١١هـ ، مصطفى الحلبى القاهرة .
- إنباه الرواة على أنباء النحاة ، لجمال الدين أبو الحسن : على القفطى المصرى ، ت ٦٤٦هـ ، تحقيق : أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ناصر الدين أبى الخير " عبد الله بن عمر البيضاوى ، ت ٧٩١هـ ، تحقيق : أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة .
- البحر المحيط ، لأبى عبد الله : محمد بن على بن يوسف الأندلسى الشهير بأبى حيان ، ت : ٧٥٤هـ ، مكتبة النصر الحديثة ، الرياضى .
- البداية والنهاية ، للإمام الحافظ أبى الفداء : إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى ، ت٧٧٤هـ ،مطبعة السعادة بمصر : تصوير مكتبة المعارف .
- البرهان فى علوم القرآن ، للأمام بدر الدين : محمد بن عبد الله الزركشى ، ت٧٩٤هـ ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، عيسى الحلبى ، القاهرة .
- بغية الوعاء : جلال الدين : عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ، ت٩١١هـ ، دار المعرفة ، بيروت .
- التبيان فى أقسام القرآن ، للعلامة شمس الدين محمد بن أبى بكر ، المعروف بابن قيم الجوزية : ت ٧٥١هـ ،دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .

- تذكرة الحافظ ، لشمس الدين الذهبى : محمد بن أحمد بن عثمان ، ت٧٤١هـ ، دار المفارق النظامية – حيدر أباد الهند .
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير : إسماعيل بن كثير القرشى ، ت٧٧٤هـ ،طبع عيسى الحلبى بمصر .
- تهذيب التهذيب ، للإمام الحافظ أبى الفضل : أحمد بن على بن حجر العسقلانى ، ت٨٥٢هـ ، دائرة المعارف النظامية الهند.
- جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، لأبى جعفر : محمد بن جرير الطبرى ، ت٣١٠هـ ، جـ٢١ ، مصطفى الحلبى ، القاهرة .
- الجامع لأحكام القرآن ، لأبى عبد الله ، محمد بن أحمد الأنصارى ، القرطبى ، ت٦٧١هـ ، طبع دار الكتب بالقاهرة .
- روح المعانى : لأبى الفضل محمود بن عبد الله الحسن ، المعروف بالألوسى ، ت١٢٧٠هـ ، ط دار التراث القاهرة .
- زاد المعاد فى هدى خير العباد ، للإمام الحافظ أبو عبد الله : محمد ابن أبى بكر أيوب الدمشقى الشهير بابن القيم ، ت ٧٥١هـ ، دار الفكر العربى ، بيروت .
- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ،لأبى الفلاح : ابن العماد ، الحنبلى ، ت١٠٨٩هـ مكتبة القدس ، القاهرة .
- الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك ، لأحمد ابن محمد الدردير ، ت١٢٠١هـ ، ط دار المعارف بمصر .
- صحيح البخارى ، لأبى عبد الله: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن مغيرة البخارى الجعفى ، ت ٢٥٦هـ ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت .
- صحيح مسلم" الإمام أبى الحسين " مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى ، ت٢٦١هـ ، بشرح الإمام النووى : يحيى بن شرف بن مرئ الخزامى ت٦٧٦هـ ، المطبعة المصرية ومكتبتها ، القاهرة .

- طبقات المفسرين ، لجلال الدين : عبد الرحمن أبى بكر السيوطى ت٩١١هـ ، تحقيق : على محمد ، مكتبة وهبة القاهرة .
- العهد القديم :جمعية الكتاب المقدس فى الشرق الأدنى .
- فتح القدير للشوكانى ، محمد بن على بن محمد: ت١٢٥٠هـ ، دار المعرفة بيروت .
- الكشاف للزمخشرى ،جار الله : محمد بن عمر الخوارزمى ، ت٥٣٨هـ ، مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة .
- اللؤلؤ والمرجان فيما انفق عليه الشيخان – جمعه محمد فؤاد عبد الباقى – أوقاف دولة الكويت .
- لسان العرب : لابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى ، ت٧١١هـ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، مصورة عن مطبعة بولاق .
- مسند الإمام أحمد، الإمام أحمد بن حنبل ، ت٢٤١هـ دار صادر ، بيروت .
- معجم المؤلفين – عمر رضا كحالة – دار إحياء التراث العربى ، بيروت ١٩٥٧م .
- معرفة القراء الكبار : للذهبى ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ، ت٧٤٨هـ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- المغنى لابن قدامة، موفق الدين أبو محمد :عبد الله بن أحمد ، ت٦٢٠هـ مكتبة القاهرة ، مصر .
- المغازى للواقدى : محمد بن عمر بن واقد المتوفى ٢٠٧هـ ، تحقيق الدكتور مارسدن جونس ، عالم الكتب بيروت .
- النحو الوافى ، للدكتور عباس حسن ، رحمه الله ، طبع دار المعارف بمصر .
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لأبى العباس : أحمد بن محمد ابن أبى بكر بن خلكان ، ت ٦٨١هـ تحقيق إحسان عباس ، دار صادر – بيروت . .